إرهاصات الصّوت الأدبي النّسوي في الجزائري من خلال قلم زليخة السّعودي

أ. زوليخة ياحي أ. فتيحة عروة
جامعة الجزائر 02

الملخّص باللّغة العربية:

إذا كان الإبداع في أيّ مجال من المجالات يصدر عن قريحة وقّادة، ملهمة فهذا يستدعي أن يكون صاحبه من جنس الموهوبين، خاصّة إذا شمل هذا الإنتاج ميدان الأدب شعرا كان، أم نثرا، والمسألة الّتي تطرح إلى جانب هذا هي في الأدب عينه؛ نقصد تعدّديّة المصطلح، وذيوع تسميات ونعوت مختلفة له، وهذا ما برز جليّا فيما صار يعرف بالأدب النّسوي، أو أدب المرأة؛ حيث شهد هذا الوصف تنوّعا في وجهات الرّأي، واختلافا في المواقف بين الرّفض والقبول، كما شهد مواقف معتدلة في رؤيتها، الأمر الّذي رسّخه وجعل الكاتبة في الجزائر تعالج مواضيع مختلفة.

Abstract/

If the invention in any domain comes from the lighten hobby this means that the inventor Is from the relented people especially if this production is in the literary, poems or prose, the Question that we ask is literary itself. We mean the difference in the word and the spread of The names and the adjectives different to it.

This occurred really in what we call the woman literary this decryption knows difference in their Opinions and difference also in their acceptance and refusal also, it witnesses views which are average in its sight. The topic that comes into reality and makes the writes in Algeria deals with different topics.

تمهيد:

الكتابة الأدبية أو الإبداع الفني نتاج ازدواجي يقوم به الكاتب والكاتبة على حدّ سواء؛ وقد طرح على السّاحة النّقديّة منذ أمد طويل للبحث والتّقصّي في مكنوناته وأطر صياغته، ومختلف سماته من جوانب عدّة، والنّظر الثّاقب إلى هذا المنتوج لم يكن محلّ اهتمام بالغ بحيث يثير الشدّ والجذب، ولا حتّى التّساؤل إلاّ بعد أن أفرزت المعطيات الحداثيّة جدلا رهيبا حول كتابة تخصّ المرأة نعتت بالأدب النّسوي أو أدب المرأة، وغير ذلك من المصطلحات؛ الّتي فتحت كلّ الأبواب والمداخل للخوض فيه وفي دلالته.

وما يشدّ الانتباه أكثر الطّروحات المتنوّعة الّتي لا حصر لها، والّتي حاولت الغوص في ثنايا هذا الجديد القديم لتقف عند الرّؤية الخاصّة الّتي انفردت بها المرأة لتمسك بالقلم، وتخوض غمار الكتابة الأدبيّة الّتي كانت وقفا على الرّجل الكاتب فحسب طيلة حقب ودهور عمّرت طويلا.

لذا نطرح تساؤلا محتواه ما المراد من هذا المصطلح الّذي أحدث جلبة وضوضاء، وما واقعه في الجزائر، بالإضافة إلى مميّزاته والمواقف المختلفة منه، وما هو الوضع العام الّذي عاشته المرأة الجزائريّة عموما والكاتبة خصوصا؛ بحيث سنتحدّث عن إرهاصاته من خلال قلم زليخة السّعودي لا على سبيل الحصر بل على سبيل الاستعراض التّمثيلي للإثبات والتّدليل.

إرهاصات الأدب النّسوي الجزائري:

إنّ الحديث عن التّجربة الأدبية النّسائية في الجزائر حديث ذو شجون يحمل في طياته العديد من الطّروحات المتضاربة، والّتي تصبّ في مجرى واحد مفاده لماذا سمة الضّبابية هي الّتي طبعت هذه التّجربة، ولماذا حدثت الفوضى في تصنيف نتاجاتها الكتابية، كلّ هذا يقود إلى طريق مسدود مبدؤه ضرورة النّظر في الأوضاع الّتي عاشتها المرأة الجزائريّة فهي وحدها ستفسّر الولادة العسيرة لأدبها.

وضع المرأة الجزائريّة:

قبل رصد الوضع العام الّذي عاشته المرأة في الجزائر نلحظ أنّ المحيط العالمي كلّه كان ينظر إلى هذا الكائن نظرة شزراء تقلّل من شأنها،" فكلّنا يدرك أنّ التّاريخ البشري لم يعط المرأة من الحرّية ما أعطى للرّجل، وأنّ الرّجل نفسه إذا وقع تحت طائلة الاضطهاد قد يصبح في الوقت نفسه مضطهدا للمرأة؛ الأخت والزّوجة والأمّ... وعليه يستطيع كثيرون أن يتحدّثوا عن تفسير لغياب كتابة المرأة في الماضي؛ لكون المرأة كانت مضطهدة اجتماعيا اضطهادات متعدّدة"[1]، فهي لم تستطع أن تنال حقوقها الاجتماعيّة فما بالك في منحها حريّة في مجال الإبداع فالأمر يبدو مستحيلا.

وإشكالية الأدب النّسوي بدأت منذ" ستينيّات القرن العشرين تحديدا، بدأ الحديث بشكل واضح في الغرب أوّلا ثمّ في الشّرق بعد ذلك عن نظريّة خاصّة مختلفة ومغايرة في فضاء الكتابة، هي الكتابة النّسويّة الّتي تتمرّد على كتابة الذّكور أو كتابة المجتمع"[2]، وانتقل الطّرح من البلاد العربية في المشرق إلى المغرب وبالتّحديد الجزائر.

والباحث المتفحّص يلحظ أنّ" النّشاط الأدبي والسّياسي في الجزائر قبل الثّورة يجد انعدام دور المرأة فيه واضحا، فلا أثر لحضورها سواء في الحركة الثّقافيّة أو في أيّ نشاط ذي طابع سياسي أو نقابي"[3]، ومردّ ذلك ليس وليد الصّدفة الرّاهنيّة آنذاك وإنّما له جذور عبر الزّمن، فوضع المرأة الجزائريّة خلال الفترة الاستعماريّة كان متدنّيا؛ حيث اعتبرت" مواطنة من الدّرجة الثّانية، وكانت تعامل أشبه بالسّلعة منها كمخلوق حيّ له مشاعره وأحاسيسه لقد كانت ضحيّة لتقاليد مجتمعها، ولسوء فهم وتطبيق التّعاليم الإسلاميّة"[4]، ومع مرور فترة الاستعمار اشتعل نير الاستبداد أكثر بالمرأة.

حتّى أنّ حالتها إبّان الاحتلال بقيت ذاتها إلاّ أنّها ساهمت بكلّ غال ونفيس في تحرير وطنها من براثن الاستبداد الغاشم؛ حيث" أطلقت الثّورة العنان للقوى الكامنة فيها، وأذكت عواطفها العارمة، وهزّت مشاعرها الّتي كانت مكبوتة من قبل، وما نادى منادي النّضال حتّى تسابقت إليه من كلّ حدب وصوب"[5]، والّذي أذكى مهجتها ولواعجها أكثر أنّ الثّورة حسّنت قليلا من وضعها، وجعلتها "حاضرة متفاعلة مؤثّرة فيها بكثافة ماديّة ومعنويّة عبر العشرات من السّنين"[6]، الّتي ضحّت فيها المرأة والرّجل معا في سبيل إعادة تاج الحريّة للبلاد.

ومع الاستقلال كان من المفروض أن تنقلب الأوضاع، ويتغيّر الواقع العامّ الّذي عاشته المرأة الجزائريّة إلاّ أنّ الحاصل كان عكسيّا تماما فقد" سبّبت فترة ما بعد الاستقلال خيبة أمل ومرارة كبيرة لدى النّساء الجزائريّات، فلقد وجدن أنفسهنّ بين يوم وليلة يحرمن فيها بنفس السّرعة الّتي تحرّرن فيها عند اندلاع نار الحرب"[7]، من معظم الإنجازات الّتي حققنها آناء الثّورة وبعدها بقليل.

وبالنّظر إلى هذا الرّصد المتراوح لوضعها يتجلّى بوضوح أنّ الوضع العام الّذي مرّت به المرأة الأديبة ليس بالهيّن فهي على الصّعيد الحياتي الاجتماعي لم تنل حظوة وتحرّرا، فكيف بمجال الإبداع والكتابة،" الّتي كانت تجرّ في أحيان كثيرة الويلات على الرّجال فكيف والحال مع النّساء الأكثر ضعفا"[8]، في الأوساط العربيّة عموما والجزائريّة بالتّحديد.

واقع الأدب النّسوي الجزائري وعوامل تأخّره:

عرف الأدب النّسوي ثباتا جدّيا مع ظهور نظريّة النّقد النّسائي عند الغرب في السّتينيّات، وانتقاله إلى المشرق؛ فقد استطاعت" أن تفرض نفسها على السّاحة النّقديّة في وقت وجيز؛ حيث أصبحت تمثّل إحدى أكثر المدارس النّقديّة الحديثة انتشارا ووعيّا بنفسها"[9]، وحصرت اهتمامها كلّيّا في نتاجات المرأة خصوصا الأدبية معلنة وجود خصوصيّة فيها تفارق ما يكتبه الرّجل.

وبعد أن استوطنت عند الغرب وجدت لها في بلاد العرب احتضانا متراوحا بين القبول والرّفض بعد الحرب العالميّة الأولى؛ " فظهرت إشكاليّة الكتابة النّسويّة العربيّة بوصفها مصطلحا جديدا، لافتا للنّظر له طبيعة جماليّة تنبعث من خصوصيّة حياة المرأة الذّاتيّة ، وعلاقتها الاجتماعيّة، فهي مع هذا المصطلح خرجت من عصر الحريم المحجوب إلى عصر القلم"[10]، الّذي حاولت الإمساك به لتبدع وتكتب في جلّ الفنون الأدبيّة غير أنّ الأدب النّسوي في الجزائر شهد حركة متثاقلة الخطى على كلّ الأصعدة، وبالأخص في المرحلة الكولونياليّة.

ذلك أنّ المرأة الجزائريّة عاشت وضعا اجتماعيّا مغلقا وضيّقا محاصرا بالتّقاليد والتّهميش والجهل، وعن التّجربة النّسائيّة الجزائريّة قالت فضيلة الفاروق:" الحديث عن التّجربة الإبداعيّة النّسائيّة في الجزائر حديث يشوبه الارتباك لأنّه مرتبط بحقيقة المجتمع الجزائري قبل كلّ شيء، فالإبداع فنّ ومن أهمّ قوائم الفنّ بعد الموهبة الحرّيّة، وعنصر الحرّيّة يبدو عنصرا غير واضح الملامح في الأجواء الجزائريّة خاصّة ما يتعلّق بحريّة المرأة"[11]، تلك الحرّيّة المصادرة في الجزائر.

و لم يكن الأدب النّسوي الجزائري معترفا به مقبولا؛ حيث لاقت الكاتبات في أكثر من مرّة الرّفض والتّغييب، وفي ذلك تقول جميلة زنّير واصفة انتحار الشّاعر صفية كتو:" الموت المأساوي رسالة احتجاج قاسيّة اللّهجة من ذات كاتبة أنثويّة عانت الفقر والقهر الاجتماعي، لا لشيء إلاّ لأنّها متّهمّة بخطيئة الكتابة"[12]، وحتّى زنّير في ذاتها تقول عن نفسها:" كنت أكتب من غير أن يطّلع أحد على كتاباتي أو يشجّعني حتّى على مواصلة الكتابة، فأنت تلاحظ أنّ القمع ينطلق من الأسرة إلى المجتمع"[13]، ذلك الّذي يكبّل الأفواه والأيدي عن الحركة حتّى لا تمسك بأفكار الذّهن لتسجّلها، أو ترسلها إلى فضاء المتلقّي.

ونفس الرّأي أبدته الكاتبة الرّوائيّة زهور ونيسي إذ تقول:" في هذا الجزء من المجتمع العربي- الجزائري - الّذي لا تزال فيه المرأة ذلك الهامش الّذي يقدّس تارة، ويستبعد تارة أخرى حسب مفهوم النّفعيّة، والمصلحة والمفهوم الضّيّق للشّرف"[14]، فهذه الآراء أجمعت على أنّ الحاجز الوحيد في انطلاقة الأدب النّسوي الجزائري يعود إلى المجتمع وقيوده الحديديّة الّتي لم تعط المرأة التّسريح المباشر في خوض غمار الكتابة.

وبذلك كانت البداية قاتمة ومظلمة وغير مستقرّة؛ حيث جاءت" شحّيحة سواء من حيث الكم، أو من حيث الكيف خاصّة ما هو مكتوب باللّغة العربيّة"[15]، بالموازاة مع ما كتب باللّغة الفرنسيّة.

ومن عوامل التّأخّر نذكر:

- عامل الاستعمار الّذي انتهج سياسة إستراتيجية مناهضة للّغة العربيّة؛ حيث وضع الثّقافة القوميّة في وضع شلّ فعاليتها وحركيّتها ممّا نتج عنه تأخر الأدب الجزائري عامّة، وما تكتبه المرأة خاصّة.
- النّظرة التّقليديّة للأدب: حيث كان الاهتمام منصبّا على الشّعر دون غيره من الأنواع الأدبيّة.
- قلّة الصّحف الأدبيّة المتخصّصة آنذاك، وصرامة الرّقابة الاستعماريّة على الحركة الثّقافية.
- التّقاليد الاجتماعيّة: الّتي كانت تنظر إلى المرأة نظرة دونيّة شهوانيّة، وترى أنّ وجودها في الحركة الاجتماعيّة يثير الفتنة والقلاقل[16].

فهذه العوامل مجتمعة مضاف إليها عوامل أخرى حصرت كتابة المرأة ما جعل انطلاقتها قدما تسير بخطى متثاقلة، وأحيانا منعدمة، ورغبة منها في كسر الحواجز استطاعت مع الزّمن أن تكوّن لها اسما ضمن الأسماء الكتابيّة في الجزائر والعالم رغم ما يميّز كتاباتها من ركود وقلّة اهتمام.

وفي ظلّ كلّ هذه الأوضاع دفع بإبداع الكاتبة حتّى يرى بداية الطّريق ليواصل ولو بأقلّ الإمكانات على غرار ما وقع لزليخة السّعودي، وزهور ونّيسي، ومثيلاتهما ما جعل ما يكتبنه يشهد فوضى تصنيفيّة وجلبة علاجيّة في مدلوله، وتضارب مواقف متراوحة بين القبول من جهة أو الرّفض من جهة أخرى.

إشكاليّة المصطلح بين التّأييد والمعارضة:

أحدث ارتفاع مصطلح الأدب النّسوي إلى الأفق جدلا واسعا بين المهتمّين، والباحثين في مجاله حول المقصود منه، ومميّزاته وضرورة ترسيخه أو رفضه؛ حيث جالت أغلب التّعاريف إلى أنّه يهتمّ بكلّ ما يخصّ المرأة، وقال حاتم الصّكر في هذا الصّدد:" حول هذا المصطلح تتضح غالبا ثلاث مفاهيم أو آراء سياسيّة؛ تعريف الأدب النّسوي بأنّه يتضمّن تلك الأعمال الّتي تتحدّث عن المرأة الّتي تكتب من قبل مؤلّفات؛ يعني الأدب النّسوي جميع الأعمال الأدبية الّتي تكتبها النّساء سواء أكانت مواضيعها عن المرأة أم لا، الأدب النّسوي هو الأدب الّذي يكتب عن المرأة سواء أكان المؤلّف رجلا أم امرأة"[17]، فهو هنا يحاول تسليط الضّوء لتحديد ماهيّة الأدب النّسوي.

وفي مقابل ذلك طرحت على السّاحة النّقدية الإشكاليّة بقوّة ما أفرز مواقف متضاربة بين التّأييد والمعارضة والحياد، ومن ذلك موقف سلمى الخضراء الجيّوسي؛ الّتي عدّت تقسيم الأدب إلى رجالي ونسائي تقسيما خاطئا؛ "لأنّه لا يحافظ على استقامة الأمور من وجهة نظرها، إذ القضيّة يجب ألاّ تؤخذ من منظور جنس الكاتب، بل تؤخذ من منظور الأدب الجيّد والأدب الرّديء في المضمون والموهبة المبدعة"[18]، وتساندها في ذلك غادة السّمان الّتي ترفض أن تصنّف الكتابة إلى نسائيّة ورجاليّة؛" لأنّ هذا التّصنيف من وجهة نظرها يعني في التّفكير الشّرقي أنّ الأدب الرّجالي قوّام على الأدب النّسائي"[19].

وكذلك ينفي شمس الدّين موسى الأدب النّسوي بقوله:" أرى أنّ تلك العبارة لا أساس لها من الصّحة، وهي بعيدة تماما عن الموضوعيّة والعلميّة؛ لأنّه لا يمكن أن يكون هناك تقسيم ميكانيكي للأدب بوصفه أدبا للرّجل أو أدبا للمرأة"[20].

وتؤكّد نبيلة إبراهيم على أنّ الأدب إنساني خالص يتجاوز التّصنيف الجنسي؛ إذ تقول:" هنالك إبداعات للمرأة تتجاوز المشكلة النّسائيّة إلى كونها إنسانا يعيش الحياة بأبعادها المختلفة"[21]، كما يعيشها الرّجل أيضا فيتلقّى تعبير كلّ منهما في كتابة تشمل البعد الإنساني المشترك.

بالإضافة إلى هؤلاء تسم زهور ونيسي هذا المصطلح بالتّحيّز والتّقوقع، بل تصفه بأنّه مصدر للتّرف الفنّي فالأدب عندها يقوم على جوهر إنساني دون أن تدخل فيه الأنوثة أو الذّكورة[22]، فلا مجال عندها إلى هذا التّصنيف الحيادي الفاصل.

وتبدي في المقابل لطيفة الزّيات امتعاضها من هذا المصطلح؛ إذ تقول:" رفضت في إصرار أن تبوّب كتاباتي الإبداعيّة في باب الأدب النّسائي"[23]، وهو رفض نابع من إيمانها بتحيّز المصطلح، وفصله للأدب العام إلى ذكوري من جهة وأنثوي من جهة أخرى.

ومع موجة الرّفض البادية يظهر موقف مؤيّد لكلّ من ظبية خميس وحنان الشّيخ؛ إذ تريان أنّ هذا المصطلح هو الأقرب لتوصيف الأدب الّذي تكتبه المرأة، وهي الوحيدة القادرة على وصف مشاعرها بدقّة[24].

ومع هذا الأخذ والرّد يرى باديس فوغالي أنّ" الأدب هو الأدب في عمقه الوجداني، وبعده الإنساني ومسحته الجماليّة سواء صدر عن الرّجل أو صدر عن المرأة، فالمرأة حين تكتب ليست هي الّتي تكتب كجنس أنثوي، إنّما المبدع بداخلها هو الّذي يكتب"[25]، فلا مجال إذن لفصل الأدب عن كاتبه سواء كان رجلا أو امرأة.

ومن كلّ ما سبق يتبدّى لنا جليّا أنّ المصطلح أحدث إشكاليّة عميقة جدّا في مختلف الدّراسات البحثية الّتي لا تزال تبحث عن جذوره، ومفاهيمه ورغم ذلك توطّن ووجد له أنصارا يقرّون بالخصوصيّة الّتي تفارق قلم الكاتبة عن قلم الكاتب.

وللنّظر الغائر أكثر نلحظ أنّ للمرأة الكاتبة في الجزائر إسهام فاعل جدّا في الحركيّة الكتابيّة رغم ما اعترض سبيلها من عراقيل، وكذلك الأمر مع الحركيّة النّقديّة وكمثال عن ذلك نعالج نتاج زليخة السّعودي، الّتي رغم عمرها القصير قدّمت للمكتبة الجزائريّة مجموعة إبداعيّة قلّ نظيرها سواء في مجال القصّة أو المسرحيّة أو النّقد، أو غيرها من الفنون الأدبيّة.

نبذة حياتيّة عن زليخة السّعودي وجهودها الإبداعيّة والنّقديّة:

تتراوح الآراء حول الرّيادة النّسويّة الأدبيّة في الجزائر بتقديم زهور ونيسي كأوّل امرأة كاتبة في الجزائر، وتأتي في المرتبة الثّانية زليخة السّعودي، والحظوة الّتي نالتها الأولى لم تسعف الثّانية حيث كانت بين المطرقة والسّندان؛ أي بين خوض مجاهيل الكتابة من عدمها فنعتت بالرّيادة والاقتحام؛ ذلك أنّها أسقطت من دائرة الإبداع سهوا بفعل الجهل واللاّمبالاة، وقد عمد شريط أحمد شريط بجمع كلّ مؤلّفاتها ونشرها في الآثار الكاملة، وأصبح ميسورا لدى الباحثين أن ينقّبوا عن كلّ ما كتبته بسهولة ويسر.

وعنها قال عزّ الدّين ميهوبي:" استطاعت في عمرها القصير أن تحدث ضجّة كبيرة في الوسط الأدبي آنذاك فقد كتبت في كلّ الفنون، وأثارت قضايا يراها المحدثون من النّقاد شيئا جديدا آخذا بالسّياق التّاريخي والزّمنّي .. فلو أمدّ الله في عمرها كانت ستتفوّق على مبدعي جيلها لما اتّسمت به من إرادة كبيرة، وحبّ لا حدود له للكتابة.. فقد وزّعت اهتمامها بين المقالة والشّعر والقصّة، والنّقد والمسرح والمراسلات.. وكانت تحمل أفكارا رؤيويّة مدهشة؛ حيث طرحت مسائل سابقة لأوانها، وناقشت قضايا لم تكن مألوفة حينها"[26]، وهذا الاعتراف وحده يقود إلى القول بأنّها أضاءت من خلال كتاباتها مسيرة حافلة رفعت قدر الأدب النّسوي الجزائري إلى الأمام.

وقد ولدت عائشة السّعودي الملقّبة بزليخا يوم 1943/12/20 بمنطقة مقادة بولاية خنشلة، عاشت طفولتها هناك لم تتجاوز تجربتها الإبداعيّة 14 سنة؛ حيث بدأت الكتابة حدود سنة 1958 وتوفّيت عام 1972م.

وقد لاقت في هذه الفترة الوجيزة المساندة من بعض أهلها، وكانت تراسل شيخ الرّوائيين الطاهر وطار، والشاعر محمد الأخضر السّائحي، ورغم كلّ العراقيل اقتحمت مجال الكتابة الأدبية، وخلّفت آثارا جمّة لا تزال حبيسة الرّفوف.

قالت عنها زهور ونيسي:" مبدعة كاتبة متحكّمة في اللّغة الشّاعريّة ذات نظرة تأمّلية، شفافة وشاملة للقضايا من حولها"[27]، فهذه شهادة تبرز مدى الكفاح المرير الّذي عانته زليخة ورونق الملكة الإبداعيّة الّتي تملّكتها.

كما تضيف جميلة زنّير إعجابها بها؛ حيث تقول:" فأيّ أبواب طرقتها هذه المرأة الرّهيفة، وأيّ بوابات شرّعت لها، وهي تتطوّر وتتجدّد في كتاباتها كلّما انتقلت من موقع إلى موقع بخطوات على الثّلج عكس كاتبات أخريات جايلنها أو جئن بعدها، ولكنّهنّ سرعان ما رفعن رايات الاستسلام لتتركهنّ إلى الخلف يتأمّلن المشهد الآفل بعيون الألم والحسرة مثل الحمامات المهاجرة[28]، فهي رغم الصّعاب أصرّت على المواصلة في درب الكتابة والإبداع، والنّشر من خلال جريدة الأحرار ومجلّة آمال.

والدّارس لمجموع آثارها تلفت انتباهه معالجة تيمة الشّرق والغرب في واحدة من أروع القصص الّتي نشرتها بعنوان من البطل؟ ففيها نفهم يقينا أنّ المعالجة تعدّ الأولى من نوعها في الجزائر تطرقها امرأة شابّة، على شاكلة الكتابات القصصيّة والرّوائيّة في المشرق العربي، وتتبدّى الإشكاليّة بالتّحديد في الصّراع الأبدي بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي.

والمعني هنا في قصّة من البطل؟ شخصيّة الأخضر الّتي هاجرت إبّان الاحتلال إلى فرنسا باحثة عن العمل، وقد ترك الأخضر عائلة متمثّلة في زوجته ربيعة، وولديه نزيهة وبلقاسم، وأمّه العجوز.

وقد عانى الأمرّين هناك ككلّ من قصد بلد الآخر الغرب بحيث بهر بسحره وجماله لكن نظرته مصحوبة بالظّلاميّة والمقت تّجاه هذا البلد" أربع سنوات في باريس، أتجهل عصارتها يا صاحبي أربع سنوات في ظلام المصانع والمقاهي"[29]، لاقى في باريس كلّ أنواع المعاناة والتّعب حتّى أنّه أصيب بمرض مستعص، وفي حديثه مع صديقه الطّيب الّذي عاد في ما بعد إلى القرية أظهر أنّ فرنسا لا تستأهل كلّ ما يفعله من أجلها، وكان يحنّ على الدّوام إلى موطن الأنا قرية جلال الرّيفية.

ورغم كلّ ما تعرّض له لم يعد، وتواصل القصّة سرد حكايات شخصيّاتها؛ الّتي عانت من ويلات الاحتلال خاصّة زوجته الّتي تعرّضت لضربة قاسيّة من قبل أحد الجنود، وفي كلّ هذا يتجلّى الصّراع الأبدي بين الشّرق والغرب، وما يلاحظ كذلك أنّ من يمثّل شخصيّة الآخر على الدّوام هي المرأة، وهي في هذه القصّة شخصيّة آنّا الإسبانية، الّتي يقترن بها الأخضر، ولكن قبل ختام الأحداث يصحو ضميره، ويعود إلى الكفاح والحرب في سبيل الوطن، ويترك وراءه كلّ بهرج باريس ولمعانها فأرض الوطن (الأنا) أغلى من كلّ شيء، وفي النّهاية يموت الأخضر مجاهدا، وتموت ربيعة؛ نتيجة شربها لدواء قاتل " قالت العجوز حدّة ذلك لتريهة وهي ترى ربيعة ملقاة جثّة هامدة على الحصير البالي، وطاسة التوتياء ما تزال بها بقية"[30].

وتختم القصّة بعبارة توحي بفرادة زليخة في المعالجة الكتابية الرّاقية "مات الأخضر وماتت ربيعة وجعل كلّ واحد في جلال يسأل من البطل؟"[31].

أمّا الآراء النّقديّة لهذه المبدعة تتجلّى في مقالتين الأولى بعنوان: المرأة والحرّية، والثّانية بعنوان: المرأة في الأدب الجزائري؛ حيث يتجلّى أنّها واكبت كلّ ما أنتج في وقتها وما كان يحدث دون أن تعلّق آراءها على مشجب الذّاتية بل قالت، وعبّرت عمّا يجيش في خاطرها لتبرز قدرتها النّقديّة الفذّة.

ففي المقالة الأولى تتحدّث عن موضوع جدّ حسّاس يخصّ المرأة والحرّية، والّذي وصلت من خلاله إلى فكرة يقينية مفادها: أنّ الحرّية ليست في اعتقاد المرأة بتقليد الأوربيّة في كلّ شيء ظاهرا وباطنا، بل في الأخذ بالمفهوم الحقّ للحريّة؛ لأنّ ذلك لا يزيد على أن يجعلها مضافة إلى آلاف الأصفار قبلها وبعدها، ويتبيّن هذا من خلال قولها: "أجل يجب أن تكون المرأة حرّة ... أن تتقدّم ... أن تكون مثل الأوربية تماما أو أفضل منها"[32]، ففي نظرها هذه ليست حريّة إطلاقا؛ لأنّ الفهم خاطئ هنا إذ تردّ قائلة: "إنّها تظنّ أنّها بكعب حذائها العالي قد بلغت السّماء... وهي تتمرّغ في الوحل .. في التّراب ...فكلّ ما أخذته قشور وزيف إذا نحن وضعناه في ميزان الثّقافة والحضارة كان فراغا في فراغ"[33]، لذا لا يعدو أن يكون إسهامها لاشيء إذا هي فهمت من الحريّة التّقليد فحسب.

في مقابل كراهيّة ما يمتّ للجزائر بصلة لغة ودينا وثورة؛ لأنّه حسبها يجب أن تؤمن بكلّ هذه المعطيات حتّى تستطيع أن تبلغ مبالغ عظمى في تحسين وضعها والنّهوض ببلدها الجزائر؛ إذ تقول: " وتأبى تضحيّات آلاف النّساء والفتيات على القمم البيضاء أن تبقى مجرّد فقاقيع طافية فوق العباب، بل لا بدّ من أن نصل إلى المكانة اللاّئقة بنا كجزائريّات"[34].

وتضيف معالجة نقديّة أكثر حداثة من خلال المقال الثّاني بعنوان: المرأة في الأدب الجزائري؛ فهي لم تنظر بعين الظّلاميّة إلى الواقع الاجتماعي بل زادته ضياء من خلال البحث في صورتها في الأدب الجزائري حيث تدعو إلى الاهتمام بالمرأة الرّيفيّة أكثر فأكثر، إذ تقول: " أعجبني أختاه أن يهتمّ أدباؤنا باستخراج حقيقة المرأة الجزائريّة الكامنة في الرّيف .. إنّ فتاة المدينة مسخت شخصيّتها وأغرقها الزّيف فما عدنا نرى تلك الرّوح البسيطة النّبيلة.. إنّ من يريد إدراك حقيقتنا المشعّة فليخرج إلى الرّيف"[35].

فهي تريد من خلال وجهة نظرها أن تبرز عظمة المرأة في الرّيف وأخلاقها الجليلة، وتزيد الأمر عمقا برصدها لتناول الأدباء لصورة المرأة في أدبهم؛ إذ تبدأ من مصطفى الأشرف في أقصوصته الباب الأخير الّذي قدّم مثال أمّ وزوجة تعد زوجها على أن يكون ابنه ثائرا مثله، وأيضا في رواية إذاعيّة لمولود معمري بعنوان ياقوت تبرز نضال المرأة الثّوريّة، ومحمد ديب في قصّته الأرض المحرّمة[36].

ففي هذه المقالة دراسة تقدّم فيها حوصلة عن رؤية الكتّاب لموضوع المرأة، وتصويرها في نتاجاتهم الأدبيّة بطريقة حواريّة جميلة، وفريدة من نوعها، وتختم بقولها: " وهل الأفكار إلاّ شموع تضيء جوانب الطّريق المعتّمة الشّاقة .. لكنّها شموع خالدة الضّياء لا تذوب ولا تنطفئ .."[37].

ومن كلّ ما سبق نقف عند القدرة الإبداعيّة الهائلة لزليخة السّعودي ما يثبت الهبّة الاندفاعيّة الجريئة لإثبات الذّات والحظوة، رغم العراقيل وسباق الزّمن الّذي أخذها في عمر الشّباب، وبذلك ظُلمت أكثر من مرّة ، ظُلمت لأنّها امرأة طلعت من عمق الرّيف الجزائري، ولم تملك غير فانوس زيتي، وظُلمت لأنّها لم تجد من يأخذ بيدها في نشر مجموعتها القصصيّة الأولى رغم إلحاحها، وظُلمت لأنّها متفوّقة وماتت فلم يذكرها النّاس إلاّ لماما، ولعلّ أعمالا قادمة في مجال البحث النّقدي ستهتمّ أكثر بهذا الطّير الجريح.

قائمة المصادر والمراجع:

---

1 حسين المناصرة، النّسويّة في الثّقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007، ص:02 .

2 حسين المناصرة، النّسويّة في الثّقافة والإبداع، المرجع السابق، ص: 01.

3 باديس فوغالي، التّجربة القصصية النّسائية في الجزائر، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2002، ص:09 .

4 عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925-1967)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، (دط)، (دت)، ص:206 .

5 أنيسة بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، 1985، ص:25.

6 المرأة الجزائرية وآفاق الألفية الثالثة، منشورات وزارة التّضامن الوطني والعائلة، الجزائر، (دط)،1999،ص:05

7 عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، مرجع سابق، ص:209 .

8 حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، مرجع سابق، ص:02 .

9 فيصل الأحمر ونبيل دادوة، الموسوعة الأدبية، دار المعرفة، باب الوادي، الجزائر، (دط)، (دت)، ص:271 .

10 حسن المناصرة، المرجع السابق، ص:66 .

11 فضيلة الفاروق، التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر، مجلة نزوى، ع 36. www.nizwa.com

12 المرجع نفسه.

13 المرجع نفسه.

14 فضيلة الفاروق، التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر، المرجع نفسه.

15 المرجع نفسه.

16 باديس فوغالي، التجربة القصصية النسائية في الجزائر، مرجع سابق، ص:11،10 .

17 حفناوي بعلي، النقد النسوي وبلاغة الاختلاف في الثقافة العربية المعاصرة ، مقال ضمن كتاب: الكتابة النسوية، التلقي والخطاب والتمثلات، تحت إشراف محمد داود، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثّقافية، وهران، (دط)، 2010، ص:47 .

18 حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، مرجع سابق، ص:89.

19 المرجع نفسه، ص:90 .

20 المرجع نفسه، ص:90 .

21 المرجع نفسه، ص:91.

22 باديس فوغالي، دراسات في القصة والرواية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص:61 .

[23] باديس فوغالي، دراسات في القصة والرواية، المرجع السابق، ص:62.

[24] يسرى حسين، آراء في دفتر الأدب والفن، البحث عن هويّة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص:172 .

[25] من كتاب الآثار الأدبية الكاملة للأديبة الجزائرية زليخة السعودي (1943-1972)، جمع وتحقيق شريبط أحمد شريبط، الصندوق الوطني لترقية الفنون والأدب الجزائري، ط1، 2001.

[26] المرجع نفسه، ص:13، 14.

[27] المرجع نفسه، ص:20.

[28] المرجع نفسه، ص:21، 22.

[29] المرجع نفسه، قصة من البطل؟، ص:146 .

[30] المرجع نفسه، ص:167 .

[31] المرجع نفسه، ص:167 .

[32] المرجع نفسه، ص:259 .

[33] المرجع نفسه، ص:259.

[34] المرجع نفسه، ص:262 .

[35] المرجع نفسه، ص:268 .

[36] المرجع نفسه، ص:270 .

[37] المرجع نفسه، ص:271 .